وهذا كلام منطقي مع موقف الشيطان حينما طرده الله ولعنه؛ لأنه رفض تنفيذ أمر السجود لآدم؛ فقال له الله عز وجل :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾ (سورة ص)

حينئذ تضرع الشيطان إلى الله تعالى أن يبقيه إلى يوم القيامة :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (سورة الأعراف)

وهكذا أقر الشيطان بطلاقة القدرة لله تعالى وبأنه عاجز لا يقدر على شيء أمام قوة الله، فقال الحق تبارك وتعالى :

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالشيطان لا قدرة له ولا قوة على فعل شيء، وكل ما يمكنه هو الخداع والتزيين والكذب، ولذلك أخذ يخدع الكفار ويكذب عليهم، وما أن صار المؤمنون والكفار على مدى رؤية العين بعضهم لبعض، هرب الشيطان وفزع ونكص على عقبيه، وأعلن خوفه من الله؛ لأنه يعلم أن الله شديد العقاب.

إذن فمصدر خوف الشيطان هنا هو الخوف من العقاب ومن العذاب الذي سيصيبه حتماً، ولم يفزع الشيطان - إذن - حباً لله تعالى .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

« المنافق » كلمة مأخوذة من نافقاء اليربوع، وهو حيوان يشبه الفأر يعيش في الجبال في سراديب، وحين يتتبعه حيوان آخر ليفترسه، فهو يسرع إلى جحره الذي يشبه السرداب، وهو يفتح أكثر من فتحة لهذا الجحر لتكون مخارج له، ومثل هذه الفتحات كالأبواب الخلفية، فينجو من الافتراس، فكأنه فتح لنفسه نفقاً، ينافق منه غيره فلا يقوى على اللحاق به. ولذلك نجد المنافق متعارضاً مع نفسه؛ ينطق لسانه بما لا يؤمن به، وبينما المؤمن منسجم النفس؛ ينطق لسانه بما في قلبه، والكافر أيضا كذلك منسجم ينطق لسانه بما في قلبه من الكفر، ولكن المنافق متخبط مع نفسه، لسانه يقول كلمات الإيمان وقلبه يضمر الكفر، وهكذا تتعاند ملكات المنافق، وحينما يكون القلب واللسان متعاندين لا توجد راحة نفسية، وحسبك من المنافق أنه متعاند في الملكات.

ويصف الحق سبحانه وتعالى المنافقين بقوله :

﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالذاتية ضائعة؛ لأن الإنسان لا يفقد ذاته حينما تكون ملكاته منسجمة ولا توجد ملكة تعارض ملكة أخرى ويكون عمله متوازناً، ولكن الذي تتعاند ملكاته يعيش دائما في قلق نفسي وحيرة. ولذلك يحاول أن يهرب من واقعه، فيلجأ إلى المخدرات أو غيرها، وليس الحل بأن يخدر الإنسان نفسه أمام الأحداث، ولكن لابد أن يواجه الإنسان الأحداث ويحاول إيجاد حل لها، والمنافق لا يقدر على ذلك فينهار، ويقول الله تعالى :

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

وبعد أن ينتصر المؤمنون نجدهم وهم يزدادون إيماناً وثقة فى أنفسهم، وتملؤهم عزة الإيمان، فينظر إليهم المنافقون بحسد وحقد؛ لأنهم يكرهون المؤمنين؛ ولا يتمنون لهم خيراً، فهم فى نفاقهم كفار، فى قلوبهم غل للمؤمنين يخاطب بعضهم البعض ويقولون: أصاب هؤلاء الغرور بدينهم. ولكن ما أصاب المؤمنين ليس غروراً؛ لأن معنى الغرور أن تغار بخصلة فيك تجعلك متفوقاً على غيرك؛ والمؤمن ساعة النصر لا يغتر بنفسه ولكنه يعتز بالله القوى العزيز، ويزداد تواضعاً له ويكون مشغولاً بشكر الله على ما حققه له من نصر، أما المغرور فهو من يعزل النعمة عن المنعم وينسبها لنفسه. والمؤمنون ينسبون كل شىء لله تبارك وتعالى؛ لأنهم يعلمون أن النعمة عطاء من يد الله الممدودة بالنعم التى لا تعد ولا تحصى، ومادامت النعمة لم تبعد الإنسان عن الله، فإن الله يزيده منها؛ لأنه مأمون على النعمة وينسبها لصاحبها، والمغرور يستعلى بأى خصلة يتميز بها عكس المؤمن الذى لا يستعلى أبداً بها؛ لأنه يعلم أنه لا ذاتية له، وأن الفضل لله تعالى، وذلك يقول الحق تبارك وتعالى وهو يصف المؤمنين:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والشدة هنا ليست غروراً، ولكنها طبع وملكة، ولو كانت غروراً لبقيت كما هى، ولكن المؤمن شديد على الكفار ذليل على المؤمنين لا يتكبر عليهم أبداً، ولا يمكن أن يجعله إيمانه فى قالب جامد؛ لأن الإيمان يعطى المؤمنين مرونة أمام الأحداث. لذلك نجد المؤمن لا هو شديد على إطلاقه، لأن هناك مواقف تتطلب الرحمة فى التعامل مع المؤمنين، ولا هو رحيم على إطلاقه؛ لأن هناك مواقف تتطلب الشدة فى مواجهة الكفار.

وكان سيدنا أبو بكر - رضى الله عنه - معروفاً بأنه كان كثير البكاء من خوفه وخشيته لله؛ وقلبه ملىء بالرحمة على المؤمنين. ولكن عندما جاءت

حـرب الردة لما نعى الزكـاة مـاذا حـدث ؟. جلس هو وعـمـر بن الخطاب ، والمعروف عن عمر أنه كـان شديدا ، وجلسا يتشاوران ، وكان رأى عـمر ألا يقاتلوا من ارتدوا بإنكارهم ومنعهم الزكاة ؛ لأنهم قالوا: لا إله إلا الله ، فقال له أبو بكر : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لـو منعـونى عـقـالاً كـانوا يؤدونه إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه ».

هذا هو أبو بكر الذى عُرف عنه أنه كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ، وكان قلبه يمتلىء بالرحمة للمؤمنين . إنه يعلن فى قوة وشدة فى الحق أنه سوف يقاتل الخارجين على حدود الله والمانعين المنكرين للزكاة. ولو أن هذا الأمر حدث من عمر لقال الناس : شدة ألفناها ، ولكن أن يحدث هذا الأمر من هذا الرجل الطيب الرحيم المطبوع على الرقة وعلى اللين ؛ فهو أمر يبين لنا شدة المؤمن فى مواجهة الكفر. المؤمن - إذن - لا هو مطبوع على الشدة المطلقة ولا هو مطبوع على الرحمة المطلقة ، لكنه شديد حين تكون الشدة مطلوبة للدين ، ورحيم حينما تكون الرحمة مطلوبة للدين ، وعزيز حين تكون العزة للدين ، وذليل حين تكون الذلة للدين. إذن فقول المنافقين : ﴿ غر هؤلاء دينهم ﴾ لا يستند إلى حكم صحيح ، بل هو مما يمليه عليهم نفاقهم ، لماذا ؟ .

لأن المؤمنين يتوكلون على الله دائما وينسبون كل الفضل لله تعالى :

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

ومادام الله عزيزاً فالذى آمن به عزيز ، وسبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ٨ سورة المنافقون)

ومادام الله حكيماً فهو يعطى الحكمة للمؤمنين، والتوكل على الله معناه أن تكل كل أمورك إليه سبحانه وتعالى، وأول هذه الأمور أنه أمرك بالأخذ بالأسباب، فلا تترك الأسباب أبداً، بل خذ بها دائما مع التوكل عليه فإذا لم تسعفك فهناك المسبب. فقد قال الحق تبارك وتعالى لعباده المؤمنين:

﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة التوبة)

وأمرنا سبحانه وتعالى: بالسعى فقال عز وجل:

﴿ فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

فهو سبحانه وتعالى كما أمر المؤمنين بأن يقاتلوا ويأخذوا بالأسباب؛ لأنه سبحانه يريد أن يعذب الكفار بأيدى المؤمنين، أمرهم سبحانه وتعالى كذلك أن يسعوا فى سبيل الرزق.

وأنت حين تتواكل تنقل صفة إلى صفة؛ لأن التوكل عمل القلوب، والعمل تقوم به الجوارح، فلا تجعل التواكل عمل الجوارح؛ لأن الجوارح تعمل بالأسباب. والقلوب تتوكل على الله، وهكذا نفهم أن التوكل الحقيقى للجوارح هو أن تعمل ولذلك فلابد من العمل والأخذ بالأسباب مع التوكل، ولابد لنا أن ننتبه إلى المنافقين فى بدر الذين قال عنهم الله سبحانه وتعالى:

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

والمنافقون - كما قلنا - هم القوم الذين تتصارع ملكاتهم، وما على ألسنتهم يتناقض مع ما فى صدورهم، أما الذين فى قلوبهم مرض فهم ضعيفو الإيمان؛ مسلمون ساعة الرخاء؛ فارون من الدين ساعة الشدة. إذن فهناك

فريقان ذكرهما الحق سبحانه وتعالى؛ المنافقون وهؤلاء كانوا من الأوس والخزرج ملكاتهم متضاربة؛ لأنهم كانوا يريدون السيادة على المدينة. وواحد منهم كان ينتظر أن يلبس تاج الملك، وبمجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تنتهى منه هذه الفرصة وتضيع فرصة الملك والزعامة، وقد أوجد ذلك فى نفسه حقداً وغيظاً . ولكن ظاهرة الإقبال من أهل المدينة كلهم على الإيمان والدخول فى الإسلام؛ جعلت هؤلاء المنافقين لا يستطيعون المقاومة؛ لذلك نطقوا الشهادتين بألسنتهم وبقى فى قلوبهم حقد وضغينة على الإسلام، فالواحد منهم تتجاذبه ناحيتان متعارضتان.

والذين فى قلوبهم مرض ليسوا منافقين ولكنهم ضعيفو الإسلام، وقد دخلوا إلى الدين ليأخذوا وهم لا يعطون، فإذا أعطاهم الإسلام بعضاً من نعم الدنيا فرحوا بها، وإذا أصابتهم شدة هربوا. ومن هؤلاء بعض الذين أسلموا فى مكة. ولكن إسلامهم لم يصل بهم إلى أن يهاجروا إلى المدينة؛ خوفا من أن يتركوا أموالهم وأولادهم فظلوا فى مكة، ومرضى القلوب هؤلاء لا يعدمون الحياة؛ لأن المرض لا يعدم الحياة، لكنهم كانوا يعانون من عدم صحة الإيمان، ولما جاءت عملية القتال فى غزوة بدر تشاوروا : أيذهبون مع الكفار أو لا يذهبون؟ ومع أى من الفريقين يقاتلون ؟. وقالوا : نخرج مع الكفار فإن وجدنا أنهم أقوى كنا معهم، وإن وجدنا المسلمين هم الأقوياء انضممنا إليهم.

ومن هؤلاء قيس بن الوليد بن المغيرة وعلى بن أمية بن خلف والعاصى ابن منيه بن الحجاج والحارث بن زمعة بن الأسود بن المطلب وأبو القيس بن الفاكه ابن المغيرة . وتجمع هؤلاء مع بعضهم وذهبوا إلى المعركة لينضموا إلى المنتصر، مؤمنا كان أو كافرا. وهم أخذوا هذا الموقف؛ لأن صحة الإيمان فى قلوب هؤلاء غير موجودة فهم أصحاب قلوب مريضة ومتعلقة بحب الدنيا.

وما قاله المنافقون والذين فى قلوبهم مرض يدل على الرغبة فى اتقاء الضرر، مع أن هؤلاء فى المدينة وهؤلاء فى مكة ولكنهم قالوا شيئاً واحداً، وهذا دليل على أن إغواء الشيطان للفريقين كان واحداً. ولذلك اتحدت العبارة. وقال هؤلاء وهؤلاء : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾

قالها الفريقان (فريق المنافقين وفريق الذين فى قلوبهم مرض) مع اختلاف المكان، فبعضهم - كما علمنا - من مكة وبعضهم من المدينة. إذن فلابد من وجود قاسم مشترك دفعهم أن يقولوا قولاً واحداً، أى أن الشيطان وسوس إليهم بهذه العبارة. ولذلك كان الواجب أن ينتبهوا إلى أن اتفاق القول دليل إغواء الشيطان لهم.

وما معنى : ﴿غر هؤلاء دينهم﴾

غررت فلاناً أى زينت له الأمر تزييناً بحيث يقبل عليه إقبالاً لا ترشحه قوته له، وقويت استعداده لكى يقوم به، فإذا جئت لإنسان محدود الدخل مثلاً وأردت أن تغريه بشراء سيارة. فأنت تقول لتزين له المسألة : اقترض من فلان وفلان وادفع الباقى بالتقسيط، كأنك تغريه أن يتخذ موقفاً غير موقفه الذى كان ينوى القيام به.

ولكن ما وجه الغرور فى الدين ؟ .

إن المؤمنين المغترين بدينهم قد أحسوا بكثرتهم رغم أن عددهم قليل. فأقبلوا على الحرب بالرؤيا التى أراها الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم بأن عدد الكفار قليل، وبوعد الله لهم بالنصر، أو غرهم بأن أوضح لهم أنَّ الذى يموت مقتولاً فى هذه الحرب يصير شهيداً وتكتب له حياة خالدة، وقد جعل ذلك القوى منهم والضعيف يقاتلان بقوة ؛ لأن الشهيد سيذهب إلى الجنة. وهكذا - فى رأى المنافقين - اغتر المؤمنون بدينهم.

ويرد الله عز وجل عليهم بقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الأنفال)

هذا هو الرد عليهم فى أن المؤمنين لم يغرهم دينهم، بل إنهم متوكلون على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه، وسبحانه عزيز لا يغلب، وحكيم يضع الهزيمة فى موضعها والنصر فى موضعه.

إذن فالمسألة أن هؤلاء المؤمنين قد اختاروا الله فأعزهم ونصرهم.

ولكن هل قيلت هذه العبارة من المنافقين علناً ؟ . لا، إنهم لم يجرءوا أن يعلنوها بل قالوها سرّاً فى أنفسهم، فأعلم الله سبحانه وتعالى رسوله بما حدث فى نفوسهم، وكانت هذه لفتة من الله سبحانه وتعالى بأن فضح حقيقتهم لعلهم ساعة يسمعون ما يدور فى نفوسهم؛ قد يتركون نفاقهم ويعودون إلى حظيرة الإيمان الصحيح، خصوصاً إذا انتبهوا إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢ ﴾

(سورة التوبة)

ففى هذه الآية الكريمة يوضح الله سبحانه وتعالى موقف المؤمنين فى كل معركة يخوضونها، فهم إما أن ينتصروا ويهزموا الكفار ويقتلوهم ويأخذوا غنائمهم، وإما أن يستشهدوا فيدخلوا الجنة، وكلّ من الأمرين خير. وكشف الحق ما يدور فى صدور المنافقين، وكان ذلك تنبيهاً للمؤمنين بألا يؤثر فيهم كلام المنافقين؛ لأن المؤمنين قد توكلوا على الله والله غالب على أمره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ﴾

والذى يُوجه إليه هذا الخطاب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومعناه لو كشفنا لك الغيب لترى ، وتلاحظ أن الله سبحانه وتعالى ترك الجواب ، فلم يقل ماذا يحدث لهذا الكافر والملائكة يضربونه ، وإذا ما حذف الجواب فإنك تترك لخيال كل إنسان أن يتصور ما حدث فى أبشع صورة ، ولو أن الحق سبحانه وتعالى جاء بجوابه لحدد لنا ما يحدث ، ولكن ترك الجواب جعل كلا منا يتخيل أمراً عجيباً لا يخطر على البال ، ويكون هذا تفظيعاً لما سوف يحدث.

والصورة هنا تنتقل بنا من عذاب الدنيا للكفار إلى ساعة الموت.

و ﴿يتوفى﴾ أى لحظة أن تقبض الملائكة أرواح الكافرين ، والتوفى وهو قبض الأرواح يجيء مرة منسوباً لله سبحانه وتعالى مصداقاً لقوله :
﴿ وهو الذى يتوفاكم ﴾ ومرة يأتى منسوباً لرسل من الله : ﴿ توفته رسلنا ﴾ ومرة يأتى منسوباً إلى ملك الموت وهو عزرائيل : ﴿ قل يتوفاكم ملك الموت ﴾

وبذلك يكون التوفى قد أسند مرة إلى الله عز وجل ومرة إلى عزرائيل ومرة إلى رسل الموت ، ونقول : لا تعارض فى هذه الأقوال ؛ لأن الأمر فى كل الأحوال يصدر من الله سبحانه وتعالى ، إما أن يقوم عزرائيل بتنفيذه وإما جنوده وهم كثيرون.

الأمر الأصيل - إذن - من الله ، وينسب إلى المتلقى المباشر من الله وهو عزرائيل ، ويُنسب إلى من يطلب منهم ملك الموت أن يقوموا بهذه العمليات.

وهذا العذاب يحدث ساعة الاحتضار وهى اللحظة التى لا يكذب الإنسان فيها على نفسه ؛ لأن الإنسان قد يكذب على نفسه فى الدنيا ، وقد يكون مريضاً بمرض لا شفاء منه فيقول : سأشفى غداً ، ويعطى لنفسه الأمل فى الحياة ، وقد يكون فقيراً لا يملك من وسائل الدنيا شيئاً ويقول : سوف أغتنى ؛ لأن الإنسان دائما يغلب عليه الأمل إلا ساعة الاحتضار ، فهذه لحظة يوقن فيها كل ميت أنه ميت فعلاً ولا مفرَّ له من لقاء الله ، ولذلك تجد أن الذى ظلم إنساناً لحظة يموت يقول لأولاده : أحضروا فلاناً لقد ظلمته فردوا له حقوقه نحوى وما ظلمته فيه ، والإنسان لحظة الاحتضار يرى كل شريط عمله. فإن كان مؤمناً رأى شريطاً منيراً ؛ فيبتسم ويستقبل الموت وهو مطمئن. وإن كانت أعماله سيئة فهو يرى ظلاماً ، ويتملكه الذعر والخوف لأنه عرف مصيره.

وحينما زين الشيطان للكفار أن يقاتلوا المؤمنين ووعدهم بالنصر ، وقال : إننى سأجيركم إذا دارت عليكم الدائرة ، فلما أصبح المؤمنون والكفار على مدى الرؤية من بعضهم البعض هرب الشيطان ؛ لأنه رأى من بأس الله ما لم يره الكفار ، وهذا هو موقف الشيطان دائماً ، إذا رأى بأس الله أسرع بالفرار ، ويعترف أن كل حديثه لابن آدم إنما هو وعد كاذب سببه الحقد الذى فى قلبه ؛ لأنه تلقى العقاب من الله عز وجل بعد أن رفض تنفيذ أمر الله له بالسجود لآدم ، وهو الذى أوجب عليه العذاب الذى سيلاقيه. ونرى الشيطان مثلاً كما يخبرنا الحق سبحانه وتعالى بقوله :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة ص)

أى أنه أقسم بجلال الله وعزته . ومعنى عزة الله أنه غنى عن خلقه جميعاً لايحتاج لأحد منهم ، فهو الله بجلال وجمال صفاته قبل أن يوجد أحد من خلقه قد خلق هذا الكون وأوجده ولم يستعن بأحد ، ولو آمن به الناس جميعاً

ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً. ولو كفر به الناس جميعاً ما نقص ذلك من ملكه شيئاً. وقسم إبليس بعزة الله إقرار منه بها. وقد أقسم بعزة الله أن يطلب الغواية للإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى مادام لا يزيد ملكه ولا ينقص بإيمان خلقه ؛ لذلك أعطاهم حرية الاختيار ، ولو أراد الله الناس مؤمنين ما استطاع إبليس أن يقترب من أحد منهم ، ويحاول إبليس بحقده على الإنسان وكرهه له أن يصرفه عن طريق الإيمان ، ولكن هل يملك إبليس قوة إغواء على مؤمن ؟ . لا ، ولذلك فهناك استثناء :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

أى أن إبليس لا يستطيع أن يقترب من عبد مؤمن مخلص فى إيمانه. ولذلك لابد أن نلتفت إلى قول الشيطان الذى جاء على لسانه فى الآية الكريمة :

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة الأنفال)

إذن فمادام إبليس يخاف الله ، ومادام يعلم أن الله شديد العقاب فما الذى أذهب عنه هذا الخوف حين أمره الله بالسجود لآدم فعصى ؟. خصوصاً وهو يعلم أن الله شديد العقاب ، ولو كان قد عرف أن الله لا يعاقب أو يعاقب عقاباً خفيفاً لقلنا أغرته بساطة العقاب بالمعصية. ولكن علمه بشدة العقاب كان يجب أن يدفعه إلى الطاعة من باب أولى.

ونقول : إنه فى ساعة الكبر نسى إبليس كل شىء !!

فأنت فى حين يأخذك الكبر تتعالى ولو فى مواقع الشدة ، حتى وإن علمت أنه قد يصيبك عقاب شديد ، ولكن يختفى كل هذا من نفسك إذا دخل فيها الكبر.

ولذلك قد تجد إنساناً يُعذب بضرب شديد ولكن الكبر فى نفسه يجعله لا يصيح ولا يصرخ. ونجد إنساناً قد يتخذ فى لحظة كبر قراراً له عواقب وخيمة ولكنه يتحمله. وإبليس ساعة رفضه تنفيذ أمر السجود كان يمتلىء بالكبر والغرور، فتكبر على أمر الله وملكه الغرور فقال:

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) ﴾ (سورة الإسراء)

إذن ففى لحظة الكبر نسى إبليس كل شىء، واندفع فى معصيته يملؤه الزهو وأصر على المعصية رغم علمه أن الله شديد العقاب.

وفى قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ﴾ (سورة الأنفال)

نجد أنه قد حذف جواب « لو » والمعنى لو كشف الحجاب لترى الملائكة وهم يتوفون الذين كفروا لرأيت أمرا عظيما فظيعا، وهل يحدث هذا ساعة القتال عندما يُقتل الكفار فى المعركة وتستقبلهم الملائكة بالضرب، أم يحدث هذا الأمر لحظة الوفاة الطبيعية؟. كلاهما صحيح والعذاب هذا أخذ صفة الإقبال ومحاولة الهرب، ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ .. (٥٠) ﴾ (سورة الأنفال)

فالمقبل منهم يضربونه على وجهه، فإذا أدار، وجهه ليتقى الضرب، يضربونه على ظهره، وكان الكفار يعذبون المؤمنين بهذه الطريقة؛ فالمقبل عليهم

من المؤمنين يضربونه على وجهه، فإذا حاول الفرار ضربوه على ظهره وعلى رأسه.

ويذيق الله الكافرين ما كانوا يفعلونه مع المؤمنين. ولكن الفارق أن الضارب من الكفار كان يضرب بقوته البشرية المحدودة. أما الضارب من الملائكة فيضرب بقوة الملائكة. ويقال : إن الملائكة معهم مقامع من حديد. أى قطع حديد ضخمة يضربون بها وجوه الكفار وأدبارهم. ومن شدة الضربة واحتكاك الحديد بالجسم تخرج منه شرارة من نار لتحرق أجساد الكفار.

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

إذن فهم يضربون الكفار ساعة الاحتضار ضرباً مؤلماً جدا ولكن هذا الضرب رغم قسوته، والشرر الذى يخرج منه لا ينجيهم فى الآخرة من عذاب الحريق.

ولذلك أقبل صحابى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا رسول الله.. لقد رأيت فى ظهر أبى جهل مثل شراك النعل. أى علامة من الضرب الشديد ظاهرة على جسده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك ضرب الملائكة، وجاء صحابى آخر وقال : يا رسول الله.. لقد هممت بأن أقتل فلانا فتوجهت إليه بسيفى، وقبل أن يصل سيفى إلى رقبته رأيت رأسه قدطار من فوق جسده. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبقك إليه الملك. وذلك مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

وهنا فى الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة الأنفال)

أى أن الضرب فيه إهانة أكثر من العذاب ، ولو أن العذاب قد يكون أكثر إيلاماً. فقد يقوم مجرم بارتكاب جريمة ما فإذا أُخذ وعُذب ربما تحمل العذاب بجلد ، ولكنّه إذا ضُرب أمام الناس كان ذلك أشدّ إهانة له ، فإذا كان الضرب من الذى وقعت عليه الجريمة كانت الإهانة أكبر.

ولكن هذا الضرب والعذاب لا ينجيهم من عذاب النار ، بل يدخلون إلى أشد العذاب يوم القيامة ، وهذه نتيجة منطقية لما يفعله الكفار من عدم الإيمان بالله ، ومن قيامهم بإيذاء المؤمنين به والإفساد فى الأرض.

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ ﴾

نحن نعلم أن معظم أعمال الإنسان يزاولها بيده ، وقد يفعل أشياء بقدميه أو بلسانه ؛ لكن معظم الأعمال تتم باليد ؛ لأن اليد تحمل القدرة على الفعل. فسبحانه لم يفتئت عليهم.

و « ذلك » إشارة إلى الضرب والعذاب الذى ينالونه جزاء ما قدمت أيديهم. ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

أى أن العذاب الذى يصيب الكفار يكون نتيجة أمرين ؛ ما قدمت أيديهم أى بما كسبت من الآثام والمعاصى ، وعدل الله سبحانه وتعالى .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾

(سورة آل عمران)

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٠) ﴾

(سورة الحج)

وهكذا نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ثلاث مرات فى القرآن الكريم، والذين يحبون أن يستدركوا على كتاب الله يقولون : إنَّه جاء فى القرآن أكثر من مرة أنه سبحانه وتعالى ليس بظلام للعبيد . فهل هذا يعنى أن الله – معاذ الله – ظالم ؟. ونقول : لا ، فسبحانه ينفى الظلم عن نفسه على إطلاقه. والإنسان حين يظلم فهو ظالم ، فإذا اشتد ظلمه وتعدد ، يقال : « ظلاَّم ». إذن فهذه صيغة مبالغة فى الظلم ، مثلما تقول : فلان « آكل » وفلان « أكّال » أى كثير الأكل مبالغة فى تناول الطعام. وتقول : فلان « ناجر » أى أمسك قطعة خشب بدون خبرة وصنع منها شيئاً. ولكنك إذا قلت : « نجّار » كانت هذه صيغة مبالغة تبين إتقانه فى صنعته ، كذلك « خائط » و « خيَّاط »، ونقول : فلان « جازر » أى يستطيع أن يذبح ، فإذا قلت : « جزَّار » أى عمله هو أن يذبح بإتقان.

إذن « فعّال » صيغة مبالغة فى الفعل. وصيغ المبالغة لها حالتان ، حالة إثبات وحالة نفى. فأنت حين تقول: فلان « أكّال » أثبت له صفة المبالغة فى الأكل - أى كثرة الأكل ، ومن باب أولى صفة الأكل مطلقاً ، ومادمت قد أثبت له الصفة الأعلى تكون الصفة الأدنى ثابتة ، فإذا قلت: إن فلاناً «خياط» أثبت له أنه يعرف الخياطة ويجيدها . وإن قلت : إنه « نجّار » أثبت له أنه ناجر متقن للنجارة ، أما من ناحية النفى فإذا قلت : إن فلاناً ليس أكّالاً تنفى المبالغة ولكنها لا تنفى أنه يأكل ، فإذا قلت: إن فلاناً ليس نجاراً نفيت عنه إتقانه للنجارة ولكنك لا تنفى عنه أنه قد يكون ناجراً ، وإذا قلت : إن فلاناً ليس علاّمة فقد يكون عالماً. وأنت عندما تثبت الأعلى تثبت الأدنى ، وعندما تنفى الأعلى لا تنفى الأدنى . وعندما تقول: إن فلاناً ليس ظلاّماً ، تكون قد نفيت الأعلى. ولكن لا يلزم نفى الأدنى فقد يكون ظالماً فقط وليس ظلاّما. إذن فكلمة « ليس ظلاماً » نفت المبالغة فقط ولكنها لم تنف الظلم. وهذا ما قاله المستشرقون : إن آيات القرآن يناقض بعضها بعضاً ، ففى آية مثلاً يقول : ﴿ ليس بظلاّم ﴾ فنفى الأعلى ولا يلزم من نفى الأعلى نفى الأدنى. ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النساء)

فنفى الأدنى والأعلى. وهذا فى رأيهم تضارب. نقول : هل إذا نفى الأعلى يلزم أن يثبت الأدنى ؟ طبعاً لا ، إن نفى الأعلى لا يمنع أن يوجد الأدنى ولكنه لا يلزم بوجوده.

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى :

نفى مبدأ الظلم، وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأنفال)

نفى مبدأ المبالغة، والقرآن يكمل بعضه بعضاً، فإذا قيل : إن الله نفى الأعلى وهذا إثبات للأدنى نقول : إن نفى الأعلى لا يلزم منه إثبات الأدنى ولا يمنع من وجود الأدنى، فإذا جاءت آية أخرى ونفت الأدنى، إذن فلا هو بظلاَّم ولا هو بظالم. ولابد أن نلتفت إلى الإعجاز القرآنى فى الأسلوب، فالمتكلم هو الله. نقول : هل قال الله سبحانه وتعالى : ليس بظلاَّم للعبد أم ليس بظلاَّم للعبيد؟ لقد قال الحق : ﴿ ليس بظلاَّم للعبيد ﴾ وهى هنا صيغة مبالغة، والمبالغة مرة تكون فى قوة الحدث وإن لم يتكرر، ومرة تكون فى المبالغة فى تكرار الحدث، والإنسان حين يظلم ظلماً بيِّناً مبالغاً فيه يقال عنه : إنه ظلاَّم؛ لأنه بالغ فى الظلم، فإذا لم يبالغ فى الظلم وكان ظلماً بسيطاً ولكنه شمل عدداً كبيراً من الناس يكون ظلاَّما نظراً لتعدد المظلومين.

ومادام الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ ليس بظلام للعبيد ﴾؛ ولم يقل : ليس بظلاَّم للعبد، وبما أن الظلم يتناسب مع القدرة. نجد مثلاً قدرة الحاكم على الظلم أكبر من قدرة محدود النفوذ؛ وهذه أكبر من قدرة الشخص العادى، فلو كان الله سبحانه وتعالى مع كل واحد من عباده ظالماً ولو مثقال ذرة لقيل : ظلاَّم. وقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذه الآية الكريمة أن يخبرنا أنه لا يظلم أحداً ولو مثقال ذرة، إذن فهو ليس بظلاَّم للعبيد؛ لأنه لو ظلم كل عبد من عباده ذرة لكانت كمية الظلم هائلة لكثرة العباد. ولكن حتى هذه الذرة من الظلم لا تحدث من الله سبحانه؛ لأن الله ليس بظلاَّم للعبيد.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى أمثلة قمة الكفر فى الحياة الدنيا فيقول تبارك وتعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾

و ﴿ الدأب ﴾ هو العادة التى تتكرر مع الإنسان ويقال : دؤوب على كذا ؛ أى يفعله باستمرار. ويوضح الله سبحانه وتعالى هنا لرسوله صلى الله عليه وسلم : دأب هؤلاء الكفار معك يا محمد ، أى عادتهم معك ، كدأب آل فرعون مع رسولهم ، أى أنهم يفعلون معك كما فعل آل فرعون مع موسى عليه السلام.

وقوله تعالى : ﴿ والذين من قبلهم ﴾

أى قوم نوح وهود وصالح ولوط وغيرهم ، ما الذى حدث لهؤلاء ؟ ؛ هلاك أو استئصال أو تعذيب أو إغراق أو خسف. إذن فالكفار الذين يعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحاربونه ، ويقفون موقف الأذى منه ، هذا الدأب والموقف منهم معه مثل دأب وموقف آل فرعون مع موسى عليه السلام ، وقوم لوط مع لوط عليه السلام ، وكذلك الذين من قبلهم ، ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

فهل تركهم الله ؟ . لا . ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

فمنهم من أُغرقوا، ومنهم من أصابتهم الصاعقة، ومنهم من خسف الله بهم الأرض، ومادام الله سبحانه وتعالى قد فعل ذلك مع الكفار السابقين كما هو ثابت. فسبحانه سوف ينزل عقابه على الكفار الذين يكذبون رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم لن يخرجوا عن قاعدة التعامل مع المكذبين للرسل، وقد حدثت سوابق مشابهة في الكون وقضايا واقعية. فآل فرعون مثلاً بلغوا قمة التقدم والحضارة في عصرهم وسبحانه وتعالى يقول عن حضارة الفراعنة :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبالنسبة لثمود إذا ذهبنا إلى مدائن صالح في السعودية نجد آثار ثمود وقد حفروا بيوتهم في صخور الجبال، ويقول الحق عن حضارة ثمود :

﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وكل الحضارات القديمة قد زالت في غالبيتها ولا أثر لها، وإن وجد أثر، فهو أثر قليل وبسيط لا يحمل كل سمات الحضارة، إلا آثار الفراعنة؛ حيث تحوى مسلات ضخمة وأعمدة عالية وأهرامات كبيرة وهي باقية، أما حضارة قوم عاد فالحق سبحانه قد طمس آثارها فلم نعثر منها على شيء حتى الآن. لقد انطمست غالبية آثار الحضارات إلا آثار حضارة آل فرعون التي يأتي إليها الناس من أنحاء الدنيا كلها؛ ليتعجبوا من جمال البناء وروعة الفن وقمة التقدم في التصميم الهندسي، وكيف نُقلت هذه الأحجار الضخمة إلى الأماكن العليا بدون سقالات، وكيف ارتبطت الأحجار كلها مع بعضها البعض كل هذه السنوات الطويلة دون استخدام الأسمنت أو غيره من مواد التثبيت للأحجار،

بل تم ذلك بتفريغ الهواء. فكيف استطاعت هذه الهندسة العجيبة أن تفرغ الهواء بين حجرين كبيرين ضخمين؛ ليلتصقا ببعضهما التصاقاً محكماً بغير لاصق ولا يستطيع أحد أن يزحزحه، فإذا كانت حضارة الفراعنة قد وصلت إلى هذا الفن الهندسى باستخدام تفريغ الهواء بين أثقال ضخمة فهى حضارة راقية جدا. هذا إن نظرت إلى فن البناء فقط، وكذلك إن نظرنا إلى تحنيط الجثث التى لا يعرف أحد سرها حتى الآن، وكيف أمكن المحافظة على المومياوات آلاف السنين دون أن تتحلل. وكذلك إن نظرت إلى الألوان التى طليت بها المعابد والرسومات وبقيت زاهية كما هى رغم كل ذلك الزمن الطويل، وإلى الحبوب التى حُنطت وبقيت آلاف السنين دون أن يصيبها أى تلف، بل وصالحة للطعام، هذه الحضارة التى احتفظت بأسرار هذه الأشياء فلم تصل إليها البشرية حتى الآن، لابد أن تكون حضارة قوية وعالية، ولكنها رغم قوتها وعلوها لم تستطع أن تحفظ نفسها من الانهيار لتصبح أثراً وتظل آثارا.

أين ذهب صناع هذه الحضارة وقد بلغوا شأواً كبيرا وملكوا زمام الدنيا فى عصرهم؟ لابد - إذن - من وجود قوة أعلى منهم، قد دكتهم. ولماذا أتى الله بآل فرعون فى هذه الآية بالاسم بينما أتى بالحضارات التى كانت قبلهم إجمالاً؟، فقال تعالى:

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

لأن آثار آل فرعون قد كشف الله عنها ورَغَّبَ فيها البشرية كلها؛ ليأتوا ويروا تلك الحضارة الهائلة التى لم تستطع أن تحمى نفسها، وذلك الفرعون الذى ادعى أنه إله ولم يستطع أن يضمن لنفسه البقاء. وشاء الله سبحانه أن تبقى آثار هذه الحضارة ليشاهدها الناس جميعاً، ثم يروا أن الله عز وجل قد

أهلك أصحابها وأصبحوا أثراً بعد عين؛ ليعرفوا أن القوة لله جميعاً، وأن الألوهية لله وحده، وأن كل شيء هالك إلا الله؛ لذلك ذكرت حضارة آل فرعون مخصصة، وهذا الذكر لآثار قوم فرعون من إعجازات القرآن؛ لأنه ذكر هذه الحضارة تخصيصاً ثم جاء الحق بخبر الحضارات الأخرى إجمالاً؛ قوم نوح وعاد وإرم وثمود. وكلهم : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

وعرفنا أن الآيات تطلق ثلاث إطلاقات : الآيات الكونية التي تثبت وجود الخالق الأعلى مثل قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وكذلك المعجزات التي يؤتيها الله رسله لإثبات صدق بلاغهم عن الله مثل انشقاق البحر لموسى عليه السلام، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله لعيسى عليه السلام، ثم آيات القرآن الكريم التي هي محكم منهج الله في الأرض.

وقول الحق : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾، نعلم منه أنهم أنكروا وجود الخالق، والأصل في الكفر هو الستر، وكفر يعني ستر. ولذلك يسمون الزارع بالمعنى اللغوي : كافر؛ لأنه يحضر الحب ويستره بالتراب، ويسمون الليل لغويا : كافر؛ لأنه يستر الأشياء. والشاعر يقول :

لي فيك أجـــر مجـــاهد

إن صـــح أن اللـــيل كافر

ومعنى « كفروا » أي ستروا وجود الله تعالى، إذن فالله عز وجل موجود ثابت الوجود قبل أن يستروه بالكفر؛ لأن الإيمان أصل في وجود الخلق، والخلق قد وجدوا على الإيمان، ثم جاء أناس ستروا هذا الإيمان. إذن فكلمة

الكفر التى معناها الستر دليل من أدلة الإيمان ، وإلا لو لم يكن الله موجوداً فكيف يسترون ما ليس له وجود ؟ ، فإذا قال لك أحد : إنه كفر - والعياذ بالله - تقول : الكفر هو الستر ؛ فماذا سترت ؟ لابد أنك سترت ما هو موجود ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾

أى كفروا بآياته الكونية فلم يؤمنوا رغم الآيات الظاهرة التى تملأ الكون ، وكفروا بآيات الرسل فكذبوا رسلهم رغم أنهم جاءوهم بمعجزات تخرق قوانين الحياة ، ولم يصدقوا آيات الكتاب التى أنزلت من السماء لتبين لهم منهج الله تعالى :

وقوله تعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

إيجاز معبر يذكر لك لماذا أخذهم الله بذنوبهم :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

والأخذ فى قوله تعالى : ﴿ فأخذهم ﴾ كان بسبب ما ارتكبوه من ذنوب وإفساد فى الأرض. والإنسان حين يجد سوءاً يحيط به وعذاباً أليماً يأتيه فهو يحاول أن يفرّ منه ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة القمر)

أى أن قدرة الله تعالى تمسك الكافر مسكة محكمة فلا يستطيع فرارا أو هروبا.

وقوله سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى أن الله أقوى من كل ما تصنعون فى كونه ، وعقابه تعالى شديد وأليم. ونعلم أن العقاب لا يعم الناس إلا بقدر ذنوبهم ، فليس معنى أن الله شديد العقاب أن تصيب شدة العذاب مَنْ فعل ذنباً بسيطاً ، ولكنْ لكلٍ جزاؤه على قدر ذنبه ؛ وهذا العقاب مهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ؛ لأن العقاب من الله إنما يحدث بقدرات الله ، فمهما كان بسيطاً فهو شديد أليم ، وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم ﴾

هذا القول لا يدخل فى الجبرية التى يقول عنها الشاعر :

ألقاه فى اليم مكتوفاً وقال له

إيـاك إيـاك أن تبتل بالمـاء

ويخطىء من يظن أن الله قد كتب جبرا على إنسان أن يكون كافراً ثم يلقى به فى نار جهنم ، لا ؛ لأن مثل هذا الأمر يتنافى مع عدالة الله سبحانه وتعالى ، فأنت أيها الإنسان مخير بين الطاعة وبين المعصية ، بين الإيمان وبين الكفر. وعلى هذا نفهم قول الحق :

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الأنفال)

أى بسبب ذنوبهم ، ومادام الحق تبارك وتعالى قد توعدهم بعقاب شديد فهذا دليل على شدة ظلمهم .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى الحيثية لذلك فيقول تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾

و « ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وأنت إن نظرت إلى بداية البشرية تجد أن الله تعالى خلق آدم ليجعله خليفة فى الأرض ، وخلق حواء لإبقاء النوع الإنسانى . وقبل أن ينزل آدم على الأرض أعطاه الله سبحانه وتعالى المنهج ، ومن آدم وحواء بدأت ذريتهما ، ولو ساروا على المنهج الذى علمه آدم لهذه الذرية ، لصارت البشرية إلى سعادة . ولكن الذرية تغيرت ، وجحدوا النعمة وأنكروا أنّ للنعمة خالقاً ، فهل يبقى الله عليهم الأمن والسلامة والنعم ماداموا قد تغيروا ؛ لا . بل لابد - إذن - أن يغير الله نعمه عليهم ، وإلا لما أصبح هناك أى منطق للدين ؛ لأن الإنسان قد طرأ على النعم ، بمعنى أن الله لم يخلق الإنسان ثم خلق له النعم . بل خلق النعم أولاً ثم جاء الإنسان إلى كون أعد له إعداداً كاملاً ؛ وفيه كل مقومات الحياة واستمرار الحياة . وظل الإنسان فترة طويلة فى طفولة الحياة يرتع فى نعم الله ، فقبل أن يعرف الزراعة ؛ وجد الثمار التى يأكلها . وقبل أن يعرف كيف يبحث عن الماء وجد الماء الذى يشربه ، وعلمه الله كيف يعيش . وذلل له من الحيوان ما يعطيه اللبن واللحم ، وكل هذه النعم وغيرها كان لابد أن يأخذها الإنسان بالشكر واستمرار الولاء لله الخالق المنعم .

ولكن الإنسان جحد نعمة الله تعالى وجحد المنعم ، أتبقى له سعادة وحياة مطمئنة فى الأرض ؟ طبعاً لا ، ومادام الإنسان قد غير ، لابد أن يغير الحق النعمة إلى نقمة ، ومن رحمته سبحانه أنه شاء أن يكون الإنسان هو البادىء ، فالحق سبحانه منزّه أن يكون البادىء بالظلم ، بل بدأ الإنسان يظلم نفسه .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

إذن فذرية آدم بدأت أولاً بتغيير نعمة الإيمان إلى الكفر ، ومن شكر النعمة إلى جحودها ، فجزاهم الله تعالى بالطوفان وبالصواعق وبالهلاك ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم ، ولو أنهم عادوا إلى شكر الله وعبادته ؛ لأعاد لهم الله نعم الأمن والاستقرار والحياة الطيبة.

ويلفتنا المولى سبحانه وتعالى إلى أن اتباع المنهج يزيد النعم ولا ينقصها ، فيقول :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وطبقاً لهذا القانون الإلهى نجد أن تغير الناس من الإيمان إلى الكفر لابد أن يقابله تغيير من نعمة الله عليهم وإلا لأصبح منهج الله بلا قيمة ، والمثال أن كل طالب يدخل امتحاناً ، ولكن لا ينجح إلا من ذاكر فقط ، وأما من لم يستذكر فإنه يرسب ؛ حتى لا تكون الدنيا فوضى. ولو أن الله سبحانه وتعالى أعطى لمن اتبعوا المنهج نفس العطاء الذى يعطيه لمن لا يتبعون المنهج فما هى قيمة المنهج ؟.

إذن لابد أن يدخل الإنسان إلى الإيمان ، وأن يكون هذا الإيمان متغلغلاً فى أعماقك وليس أمراً ظاهريا فقط ، فلا تدَّع الإصلاح وأنت تفسد ، ولا تدع الشرف والأمانة وأنت تسرق ، ولا تدع العدل وأنت تظلم الفقير وتحابى الغنى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يعطى نعمه الظاهرة والباطنة إلا لمن يتبعون منهجه. وإذا رأيت قوماً عمّ فيهم الفساد فاعلم أن نفوسهم لم تتغير رغم أنهم يتظاهرون

باتباع المنهج الإلهى.

وإن شكونا من سوء حالنا فلنعرف أولاً ماذا فعلنا ثم نغيره إلى ما يرضى الله عز وجل فيغير الله حالنا. ولذلك إذا وجدت كل الناس يشكون فاعلم أن هذا قد حدث بسبب أن الله غير نعمه عليهم ؛ لأنهم غيروا ما بأنفسهم . أى أن حالتهم الأولى أنهم كانوا فى نعمة ومنسجمين مع منهج الله ، فغيروا انسجامهم وطاعتهم فتغيرت النعمة ، أى أن هناك تغييرين أساسيين ، أن يغير الله نعمة أنعمها على قوم ، وهذا لا يحدث حتى يغيروا ما بأنفسهم.

وقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأنفال)

أى أن الله تعالى يعلم حقيقة ما يفعلون ويسمع سرّهم وجهرهم ، ولذلك إذا غيروا ، سمع الله سبحانه وعلم ؛ لأن التغيير إما أن يكون بالقول وإما أن يكون بالفعل ، فإن كان التغيير بالقول فالحق سبحانه يسمعه ولو كان مجرد خواطر فى النفوس ، وإن كان التغيير بالعمل فالحق يراه ويعلمه ولو كان فى أقصى الأرض.

يعود الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون فيقول :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

يتساءل البعض : لماذا عاد الحق سبحانه وتعالى إلى آل فرعون ولم يأت بها

مع الآية الأولى ؟. نقول : لأن هناك فرقا دقيقا بين كل منهما . فالآية الأولى يقول فيها الحق تبارك وتعالى : ﴿ كفروا بآيات الله ﴾ وفي الآية الثانية يقول فيها :

﴿ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

والآية الأولى تدل على أنهم كفروا بالآيات الكونية المثبتة لوجود الله تعالى وآيات الرسل وآيات الكتب التي أنزلت إليهم ، وفي هذه الآية كذبوا بآيات ربهم أي لم يصونوا النعم التي أعطاها الله لهم ، فنعم الله عطاء ربوبية ، وتكاليفه ومنهجه عطاء ألوهية ، وهم في الآية الأولى كذبوا بعطاء الألوهية ، أي كفروا بالله. وفي الآية الثانية كذبوا بعطاء الربوبية أي بنعم الله ، فعطاء الربوبية هو عطاء رب خلق من عَدم وأمَد من عُدم لتكتمل للإنسان مقومات حياته. والله يساوي في عطاء الربوبية بين المؤمن والكافر وبين العاصي والطائع ، ولا يفرّق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر.

وهنا يقول المولى سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأنفال)

أي لم يكن بينهم مؤمن وكافر بحيث يكون هنا تفرقة بأن ينجي المؤمنين ويغرق الكافرين ، بل كلهم ظلموا أنفسهم بالكفر ؛ لذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ ، وذكر سبحانه آل فرعون بالتخصيص ؛ لأنهم الأمة الوحيدة التي بقيت حضارتها تدل على مدى تقدمها ، هذا التقدم الذي لم نصل إلى كل أسراره حتى الآن. ولا يمكن أن تنتهي مثل هذه الحضارة إلا بقوة أعلى من قوتها. فكأن الحق قد أراد أن يلفتنا إلى آل فرعون بالذات ؛ لأنه قدر

للبشرية أن تكتشف آثار آل فرعون، وآثارهم لافتة للعالم أجمع، ووضع فى قلوب البشر حب أن يأتوا ليروا حضارة آل فرعون، ويتعجبوا كيف وصلوا إلى هذه المنزلة العالية من الحضارة، ثم انهارت هذه الحضارة كدليل على وجود قوة أعلى وهى الله سبحانه وتعالى، وقد أهلكهم الحق لأنهم كفروا بالألوهية واتخذوا فرعون إلها وربا من دون الله، وكفروا بنعمة الربوبية التى أعطاها الله لهم، والتى يذكر الله جزءا منها فى قوله الكريم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إذن فالله تعالى قد أعطاهم الزرع والماء ولم يعطهم بتقتير، بل أعطاهم بوفرة وسعة؛ لذلك قال تعالى : ﴿جنات وعيون﴾

وأعطاهم الثروة والقوة التى تحفظ لهم كرامتهم؛ وتجعلهم أسياد الأرض فى عصرهم، وحققت لهم مقاماً كريماً ولم يجرؤ أحد على أن يهينهم، ولا أن يعتدى عليهم، فقد كان عندهم كنوز الأرض؛ وعندهم القوة التى تحفظ لهم الكرامة فى قوله تعالى :

﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الدخان)

وأعطاهم من العلم ما يوفر لهم الترف والحياة الطيبة الرغدة المريحة فى كل شىء، ولكنهم كفروا بنعم الربوبية هذه، كما كفروا بنعمة الألوهية؛ فاستحقوا العقاب، وبقيت آثارهم تدل عليهم؛ نجد فيها الذهب والكنوز، وقد دفنت مع موتاهم، ونجد فيها الحضارة والقوة فى المعارك التى صوروها على معابدهم بتوضيح وإتقان. ونرى فيها النعمة الهائلة التى كان يعيش فيها فرعون

وقومه، ولكنهم لم يؤدوا حقها وكفروا بالخالق واهب النعم.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٥٥ ﴾

﴿ الدواب ﴾ جمع دابة، والدابة هى كل ما يدب على وجه الأرض، فإذا كان هذا هو المعنى يكون الإنسان داخلاً فى هذا التعريف، ولكن العرف اللغوى حدد الدابة بذوات الأربع، أى الحيوانات. وشرف الخالق سبحانه وتعالى الإنسان بأن جعله لا يمشى على أربع، فلا يدخل فى هذا التعريف. وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأنفال)

يبين لنا أن الله سبحانه وتعالى قد ألحق الكفار بالدواب واستثنى المؤمنين فقط، فسبحانه خلق الدواب وباقى أجناس الكون مقهورة تؤدى مهمتها فى الحياة بالغريزة وبدون اختيار؛ والشيء الذى يحدث بالغرائز لا تختلف فيه العقول، ولذلك نجد كثيراً من الأشياء نتعلمها نحن أصحاب العقول من الحيوانات والحشرات التى لا عقول لها؛ لأن الحيوانات تتصرف بالغريزة، والغريزة لا تخطىء أبداً، فإذا قرأنا قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

نجد أن الغراب الذى لا اختيار له، ولا عقل؛ علم الإنسان الذى له عقل